المحور الخامس: نظرية العامل في النحو العربي

تمهيد: لقد استطاع النحاة القدامى تمثل ما استوعبوه من تُراث لغوي فصيح، وما أُثِر عن العرب من تعليلات للغتهم، ودرسوا ما استخلصوه من ضوابط وحدود لأساليب العربية، فاكتشفوا أنه يُمكن التقعيد لِكُل أصناف الكلمات والتراكيب، التي تشترك في خصائص واحدة، وبهذا تمكنوا من حَصْر حالات الرفع، وحالات النصب، وحالات الجرّ، وحالات الجزم، كما اكتشفوا خصائص كل حالة من الحالات ووضعوا ضوابطها، فذهبوا يسجلون تلك الخصائص والضوابط، ويطلقون على كل حالة اسما تتفرد به، لا يَصْدُق على غيره، فهذا مبتدأ وذاك خبر، وذلك فاعل، وفعلوا مثل ذلك في الكلمات المنصوبة والمجرورة والمجزومة.

فالعامل هو المحور الرئيس الذي تدور حوله قضايا النحو ومباحثه، إذ ظلّ بقوانينه، وضوابطه القاعدة المحكمة، والعاصم من الزلل، كيف لا وهو ضابط الكلمات، وفق ما يحس ويدرك من معاني الكلام، فهو يمكن المتكلم من الاهتداء في الحركة المطلوبة، والضبط الصحيح أثناء الكلام أو الكتابة أو القراءة.

أولاً: تعريف العامل:

لغة: من عَمل، يَعمَل، عَملاً، فهو عامل، وجمعه: عوامل، وهو الباعث أو المؤثر في الشيء، فيقال: أعمله غيره، واستعمله، أي طلب منه العمل، واعتمل؛ نقول: اعتمل الشيء، إذا اضطرب في العمل.

اصطلاحا: العامل في النحو كما يعرفه الجرجاني "ما أوجب كون آخر الكلمة على وجه مخصوص، وهو الإعراب". وعند الرماني: العامل هو الإعراب.

باشا:"العامل هو ما عمل في غيره شيئا من رفع أو نصب أو جزم على حسب اختلاف العوامل".

ويقول صاحب اللّسان(ت811هـ): "العامل في العربية ما عَمِل عملا ما، فرفع أو نصب أو جر، كالفعل، والناصب والجازم، وكالأسماء التي من شأنها أن تعمل أيضا، وكأسماء الفعل، وقد عَمِل الشيء في الشيء أحدث فيه نوعا من الإعراب ."

أو ما يؤثر في اللفظ فيجعله منصوبا أو مرفوعًا أو مجرورًا، أو مجزوما، كأن تقول: (حضرَ الطالبُ باكرًا)، فالفعل(حضرَ) عامل عملَ في الفاعل(الطالبُ) فجعله مرفوعًا، ونقول: (حضر الطالبان) فالفعل(حضر) عامل لأنه رفع (الطالبان) فجاء فاعلا، وتقول: (صليت ركعتين) فالفعل(صلّى) عامل عمل في(ركعتين)، فجاء منصوبا على أنه مفعول به، وتقول: "إلى الكعبة أحج"، عامل عمل في الكعبة، فجاء مجرورا على أنه اسم مجرور ب(إلى).

لذلك عرّفه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: "هو كل، فارفع، أو جرّ، أو نصب، أو جزم".

ويعرفه ابن الحاجب بقوله: "هو ما به يَتقَوم المعنى المقتضى للإعراب".

ثانيا: أنواع العامل: يعّد الإعراب في اللغة العربية استجابة لأحد المؤثرين:

أ.مؤثر معنوي: يكون الإعراب فيه خاضعا للمعنى خضوعًا مطبقًا، فيكشف عن الفاعلية، والمفعولية، والهيئة، والزمان، والمكان، والتعدّد، والتفسير...

ب.مؤثر لفظي: يكون الإعراب فيه غير مُجارٍ للمعنى، ولا يُعَير عنه، بل يخضع للعلاقات اللفظية في التركيب، بمعنى بقاء الحركة الإعرابية هي هي؛ مثل: (ما باليد حيلة) و(ما بليد من حيلة).

حيلة: مجرور لفظا ب(ممن)، مرفوع محلا على أنه مبتدأ. (الوظيفة الإعرابية باقية هي هي).

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلا﴾. لذلك قُسم العامل من **جهة عمله** إلى ثلاثة أنواع، ومن **جهة طبيعته** إلى نوعين: لفظي ومعنوي.

أ.العامل من حيث عمله:

1.عامل أصلي: لا يمكن الاستغناء عنه، وإلاّ فسد المعنى، كـ"الفعل"، و"أدوات النصب، والجزم"، و"بعض حروف الجر".

2.**عامل زائد**: يمكن الاستغناء عنه دون أن يترتب –غالبا– على حذفه فساد المعنى المقصود، مثل: "الباء ومن"، وغيرهما من باقي الحروف التي لا تجيء لمعنى جديد، وإنما تُزاد لتقوية المعنى وتوكيده.

3.عامل شبيه بالأصلي: لا يمكن الاستغناء عنه، ولكن لا يحتاج إلى ما يتعلق به(عمله أو أثره لفظي فقط)، وينحصر في بعض"حروف الجر" التي تؤدي معاني جديدة دون أن تحتاج مع مجرورها إلى متعلق مثل: (ربّ) كقول امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله **** عليَّ بأنواع الهمومِ ليبتلي.

و(ليلٍ): مبتدأ مجرور لفظا ب(ربَّ) المحذوفة، مرفوع محلا.

ب.العامل من جهة طبيعته: (ظهوره في النطق أو عدمه)

أ. عامل لفظي يظهر في النطق والكتابة.

ب. عامل معنوي يدرك بالعقل دون أن يُلفظ أو يكتب: ومنه "الابتداء"، ف"الابتداء" عامل معنوي يُفهم عقلا لا لفظًا أو كتابة، ومنه كذلك "التجرد" الذي رُفع به "الفعل المضارع"، [تجرده من الجوازم والنواصب]، ف"التجرد" عامل معنوي كذلك، وينضاف إليهما: "الخلاف" مثل(سار الرجل والجبل)، أو نحو: (الله أعظم كل شيء)، ف"الله" معمول لعامل فيه هو "الابتداء"، وقولك: (يُفلِح المجتهدُ)، ف"المجتهد" معمول للفعل المضارع (يُفلِح)، والفعل "يُفلِح" معمول لعامل معنوي هو: "التجرد".

ويمكن تعداد "العوامل اللفظية" في: أفعال، وأحرف، وأسماء. أمّا: العوامل المعنوية فالمشهور منها: الابتداء والتجرّد، والخلاف.

أ-العوامل اللفظية: هي التي تظهر في النطق والكتابة. وهي "الأفعال، والأسماء، والحروف"

1* الأفعال: وهي الأصل في العمل تعمل الرفع والنصب وجميع الأفعال ترفع اسما واحد، وهو "الفاعل"، إذا كان "الفعل" تاما، فيسند "الفعل" إلى هذا الاسم، مثل: (حضر زيد)، و(غاب عمرٌو)، وهناك أفعال تجري مجرى الأدوات، ولها أحكام مختلفة،مثل: "كان وأخواتها"، و"كاد وأخواتها" لا تكتفي بمرفوع بل تحتاج إلى منصوب حتى يتم معناها، ولذلك الاحتياج سُميت: "أفعال ناقصة"، مثل قوله تعالي: ﴿وكان ربُّك قديرًا﴾(الفرقان، الآية54)، و﴿كان الله شاكرًا عليمًا﴾(النساء، الآية128.). فعلا المدح والذم، وهما: "نعم، وبئس"، وأفعال التعجب، كما تعمل الأفعال النصب في "المفعول به"، حين يكون الفعل متعديا إلى مفعول واحد أو مفعولين، أو أكثر، مثل: (أكرمت المجتهد)، (حسبت الأمر سهلاً)، كما تفعل الأفعال الناقصة النصب في الخبر، وتعمل "الأفعال" النصب في التمييز، مثل:"كان محمدٌ غنيًا" و"طاب محمد محمدٌ نفسًا)، كما تعمل النصب في المصدر نحو: (قمت قيامًا)، و(صليت صلاة مُوَدِعٍ)، كما تعمل النصب في الظروف، مثل:(صليت خلف الإمام)، وتعمل في المقادير نحو قولك: (سرت فرسخا)، وتعمل في المفعول لأجله: نحو: (قمت احتراما لكَ). أو نحو قوله تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾(البقرة، الآية19)، وتعمل كذلك في "الحال"، كقولك: (أقبل الطالب مسرعًا)، أو نحو قوله تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولا﴾(النساء، الآية79).

2* الحروف: وهي على أربعة أضرب:

1-الضرب الأوّل: وهو على نوعين:

أ.نوع برفع وينصب: ويكون منصوبه قبل مرفوعه، وذلك في مثل: "إنّ وأخواتها" ما لم تدخل عليها "ما" الزائدة الكافة فتكفها عن العمل: مثل قوله تعالى: ﴿إنما الله إله واحد﴾(النساء، الآية171)، أو نحو قوله تعالى: ﴿إنّما النسيء زيادةٌ في الكُفرِ﴾(التوبة، الآية37). فـ(إنما) هنا كافة ومكفوفة.

ب.نوع يكون مرفوعه قبل منصوبه: وهو النوع الثاني من الضرب الأوّل، يكون مرفوعه قبل منصوبه، وذلك في مثل: "لا النافية للوحدة"، وما كان في معنى"ليس"، مثل: "ما الحجازية" شريطة ألا يتقدم خبرها على اسمها أو عليها.

2-الضرب الثاني: ما ينصب فقط، مثل: "أنْ، لن،، كي، إذن" وهي نواصب الفعل المضارع، وهناك من يضيف"واو المعية" و"إلاّ للاستثناء" ما لم يسبق بنفي، مثل: ﴿وما محمد إلاّ رسول، قد خلت من قبله الرّسل﴾(آل عمران، الآية144)،

3-الضرب الثالث: ما يجزم فقط، وهي الحروف الخمسة الجازمة:

*(لم): نحو قوله تعالى: ﴿ولم يُؤتَ سعةً من المالِ﴾(البقرة، الآية27)، أو كقوله تعالى:﴿لمْ يلدْ ولم يولدْ﴾(الإخلاص، الآية3).

*(لا الناهية): نحو قول الشاعر:

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله****لن تبلغ المجد حتى تلحق الصبرا

أو نحو قوله تعالى:﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾(الإسراء، الآية32)، وقولك: (لا تكن بخيلاً).

*(إنْ الشرطية): كقوله تعالى: ﴿وإنْ تبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسبكم به الله﴾(البقرة، الآية284.)، ﴿وإنْ يُكَذِبوكَ فقد كُذِبَ رسل من قبلك﴾(فاطر، الآية04).

*(لما) كقوله تعالى: ﴿ولّما يَدخُل الإيمان في قلوبكم﴾(الحجرات، الآية14).

*(لام الأمر): مثل قوله تعالى:﴿فلينفق ذو سَعةٍ من سَعَته﴾(الطلاق، الآية07)، ﴿فَليدع نَادِيه﴾(العلق، الآية17).

4-الضرب الرابع: ما يجر فقط، وهي حروف الجر الأصلية والزائدة والشبيهة بالزائدة، وعددها عشرون حرفا، جمعها ابن مالك في قوله:

هاك حروف الجر وهي: من، إلى، متى، خلا ****حاشا، عدا، في، عن، على
مُذ، مُنذ، رُبَّ، اللام، كي، واو، وتـــــــا**** والكاف، والباء، ولعل، ومتى.

مثل(استعنت بالله، وتوكلت عليه، وأنبت إليه)،(ربّ أخٍ لك لم تلده أُمكَّ)، (أكرم بالمجتهد)، والمجتهد: فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا.

3* الأسماء: وهي على ضربين:

1. ضرب يعمل عمل الفعل إمّا مجازا، نحو(عندي عشرونَ درهمًا) نصب بـ:عندي. أو على الحقيقة، وذلك في مثل: المشتقات: ((اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، والمصدر، واسم الفاعل))، مثل: ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾(الأحزاب، الآية35)، ﴿إنّ الله بالغ أمره﴾(الطلاق، الآية3)

2.ضرب يعمل عمل الحرف جرًا وجزما، فالجر في مثل الإضافة نحو(كتابُ سيبويه مفيدٌ)، أو(اقتنيت ثلاثةَ كتبٍ)، ويعمل عمل أدوات الشرط الجازمة: وهي: "من، ما، متى، أنّى، إنما، أين، أيان، أيّ، حيثما، مهما، وكيف"، مثل قوله تعالى:﴿وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله﴾(البقرة، الآية197)، ونحو: (متى تجتهدوا تنجحوا)، وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يُدْرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مُشيدةٍ﴾(النساء، الآية78)

ب-العوامل المعنوية: وقد سبق بيانها.

ولمعرفة العامل أثران: الأول: أنه يساعد على إدراك المعنى، والثاني: أنه يُسَهل الإعراب.

ثالثا: أسس نظرية العامل: تقوم على ثلاثة أسس رئيسية:

1. أساس الاقتضاء: إذ الشرطية تقتضي: فعل الشرط+ جملة الشرط.

2. أساس الاحتمال: هناك أربعة احتمالات في كل لفظة: الرفع، النصب، الجزم، الجر.

3. أساس الصفر الإعرابي: معناه أنّ كل عامل يدخل على الجملة يعيدها إلى نقطة الصفر الإعرابي، ثم يحدث فيها أثره، مثل: كان وأخواتها، وإنّ وأخواتها، فـ(**إنّ وكان**) تغيران حركة المبتدأ والخبر رفعا ونصبا ثم تحدث فيهما الرفع.

رابعًا: مصوغات نظرية العامل:

مما لاشك أنّ أهم سمات الجملة العربية هي خضوع الألفاظ للإعراب، ويكون إعرابها بناء على عامل يعمل فيها، ولهذا العامل مسوغات، ذكر النحويون منها عددا كبيرا، هذه أهمها:

1.الإسناد: ويقصد به"المسند إليه" خصوصا، وعادته الرفع سواء كان مبتدأ أو فاعلا، أو ما ينوب عن الفاعل، ورفعه وخفضه منوط بالشكل: اللفظي للتركيب، مثل:(إذا قالت حذام)، أو كقولنا: (ما في الدار من أحد)، أصلها: (ما في الدار أحدٌ).

2.جر المنصوب: دون أن يُغير ذلك في وظيفته المعنوية في التركيب، مثل قولنا: (ليس كل ما يلمع ذهبا)، (ليس كل ما يلمع بذهبٍ)، (وما رأيتُ أحدًا) (ما رأيت من أحدٍ)

3.نصب المجرور: يتغير الإعراب دون أن يتغير المعنى، وهو عكس الحالة السابقة، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾

4.التبدل: تباين حركات الإعراب، مثل قولك: (الجو جميلٌ)، (إنّ الجو جميلٌ)، (صار الجو جميلاً).

5.النعت السببي: وهو الذي يَتبع ما قبله في "حركة الإعراب"، ويتبع ما بعده في النوع والعدد، مثل قولك: (رأيت رجلاً كريمةً طباعُهُ)، فلفظة(كريمة) نُصِبت للتبعية اللفظية، فالعلاقة اللفظية هي سبب إعرابه.

خامسا: العامل عند النحاة:

1.**الخليل**: يرى الخليل أنّ وراء كل رفعٍ، أو نصب، أو جر، أو جزم في الأسماء والأفعال، عامل يعمل فيها، وهذه العوامل، إما أفعال،، وإمّا أدوات لفظية أو معنوية تفسر الحركة الإعرابية التي يحملها الاسم أو الفعل المعرب وترتبط بوجودها.

وقد كان منطق الخليل في ذلك أن اللغة العربية لغة قصد وإيجاز، وأسلوبها يقوم على الإشارة الموحية، ويُجتذب بالحذف، ويتكئ على التقديم والتأخير لذلك لجأ الخليل وغيره من النحاة إلى تقديم، وتقدير العوامل، قصد توضيح ما قد يعسر فهمه، أليْس مثلا إدراك معنى الآية الآتية أمرا صعبا: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك....، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة﴾(النساء، الآية162)

وقد كان حق لفظة(المقيمين) الرفع، لو كانت معطوفة على ما قبلها، ولكنها جاءت منصوبة على الاختصاص، لذلك نجد الخليل يقف على هذه الآية مجتهدا في إبراز سرها الخفي، وما يلاحظ عن الخليل في نظرته إلى العامل على أنها لا تتجاوز حد التوضيح والإعانة على الفهم، فإن تعارضت مع ما يقاضيه المعنى، اقتصر تأثيرها على اللفظ دون المعنى، ومثال ذلك في قوله تعالى: "وكفى بالله شهيدا" وقد جرت لفظا فقط.((سبوية، الكتاب، ج1، ص63)) فهي عنده في تأويل(وكفى الله)، وقد جرت لفظا فقط.

2.**سبويه:** يرى سيبويه في باب: "باب ما ينصب في التعظيم والمدح" "زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم تُرد أن تُحدِّث الناس، ولا من تخاطب بأمر جَهِلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد عَلمته، فجعلته ثناءً، وتعظيما، ونسبه على فعل لا يُستعمل إظهاره، وهذا شبيه بقولك: "بني فلانٍ تفعل ذلك"؛ أي إنّ(بني) منصوب على الاختصاص."(المصدر نفسه، ج1، ص291.)

لقد كان سيبويه أكثر النحاة الأوائل تصريحا بلفظ(العامل) مشيرا إلى أنّ النصب والجر، والرفع، والجزم، تُحدثها العوامل التي لكل منها ضربٌ من اللفظ في حرف الإعراب" (ينظر: المصدر نفسه ج3).

إنّ البحث في موضوع العامل في النحو العربي قد استهلك الجهد الكبير، واستغرق الوقت الطويل، حتى صار لدى النحاة عدد هائل من العوامل بلغ حدّ "المائة" مثلما هو الحال عند "الجرجاني" في كتابه الموسوم: بـ: "العوامل المائة النحوية" تنقسم إلى عوامل أصلية، وأخرى فرعية. وإلى عوامل قوية وأخرى ضعيفة. وإلى ملفوظة، ومقدرة، وموجود، ومعدوم، ومبدل، ومبدل منه، كما نميز فيها:

نواصب، وجوازم، وحروف جر، وما يرفع وينصب، وما ينصب ويرفع، وما ينصب مفعولين وما ينصب ثلاثة...فكثر الخلاف واشتد الحجاج، فاختلطت تلك الأصناف، والأقسام، وتداخلت في نظريات متعددة، هذا ما جعل القاضي الظاهري بن مضاء الأندلسي يضيق بالنظرية ذرعا، ويثور عليها مسفها إجماع النحاة وإصرارهم على تحكيمها في موضوعات النحو والإعراب، ذلك لأنه كما يقول: "يستحيل أن تحدث الألفاظ بعضها بعضا، ويجب في العامل أن يكون حاضرا حيث العمل، مع أنه لا يحدث الإعراب إلا بعد ميلاد العامل المزعوم، وليس في هذه العوامل ما يفعل بالإرادة كالحيوان وما يفعل بالطبع كالماء والنار".

وينقسم العامل باعتبارات كثيرة:

أ*باعتبار المنهج: عامل لغوي، عامل فلسفي، عامل توفيقي.

ب*باعتبار الشيوع: عامل قياسي، عامل سماعي.

ج*باعتبار الوضع: عامل لفظي، عامل معنوي.

د*باعتبارات أخرى: أصلي وغير أصلي.

خلاصة: نظرية العامل: هو عملية رصد لمجموع العلاقات اللفظية والدلالية المشكلة للحدث اللغوي في اللغة العربية قصد التبرير.